

## الفصل الثاني

### الحرام

- ١- المحور الأول : موقف أهل النفيش من الحرام .
- ٢- المحور الثاني : واقع عبدة .
- ٣- المحور الثالث : موقف أهل النفيش من الغرامة بصفة عامة ، ومن عبدة بصفة خاصة .

obeikandi.com

إذا كان "يوسف إدريس" قد وضع شخصيته في رواية ( العيب ) على قمة عالية من خلال

تمسكها بالقيم والمبادئ ، ثم أخذت تهوي بتخليها على قيمها ، فإنه عكس الوضع في رواية ( الحرام ) ، بدأ بالشخصية في الدرك الأسفل من هوة الحرام ثم بدأ يصعد بها على درجات التطهر والتفكير والندم حتى وصلت بعد ذلك إلى مقام عظيم بالنسبة لأهل التفتيش .

ويوسف إدريس شغوف بهذا (التناقض) أو الأسلوب فبرأيته وقصه وبالأخص عكس وضع الجماعة مع الشخصية ، فهما دائما على طرفي نقيض جماعة المكتب التي تع التصاريع تحاول أن تجذب (سواء) لتسير في تيار قبول الرشوة ، وأهل التفتيش يبحثون عن تلك التي ارتكبت الجريمة التي روعت العزبة وما يجاورها من عزب .

وتبدأ الرواية حينما عثر الخفير ( عبد المطلب محمد البحرأوي ) على الجنين أسفل شجرة الجميز ذات صباح ، وأيقن الجميع بعد ذلك أنه ابن حرام ، والألمة ألقى هكذا؟! وكان لأهل التفتيش موقف متميز إزاء تلك الجريمة ، هذه المرقف مرعدة مراحل :

- ❖ إنكارها وعدم تصديقها .
- ❖ الاعتزأ بقرعنا .
- ❖ الحن عن الجانية .

ومعنى أن ينكر أهل التفتيش الواقعة . يدل دلالة واضحة على غرابتها وعدم إلف المجتمع لمثل هذا الحدث . هذا المجتمع الذي يعتد بتلك القيم المستمدة من الأرض ، والتي تحكمه من آلاف السنين ، فهي - الجريمة - شيء غير مألوف بالمرة ، مقحم على عقل تلك الجماعة ، حتى ( فكري أفندي ) المأمور لم يصدق وجود مثل تلك الجريمة . وفي هذا المكان بالذات ، من خلال سورليج بدوريسه ،  
برين ص ١١٤ :

( ترى أيهن هي التي فعلت هذه الفعلة ؟ وترى كيف فعلتها ؟ فكري أفندي طالما سمع في القصص والحواديت عن أولاد الحرام وأحياناً كانت تملغه فضائح مثل هذه كأخبار ليست إلاً عن أناس لا يعرفهم ولا يدري أشكالهم ولا ماذا يكونون وفي أعماق أغوارد . وحتى لو كان قرأ الخبر في حريدة المقطم نفسها التي يؤمن بكل كلمة تقولها ، فإنه كان يجد نفسه لا يكاد يصدق الخبر ، لا يكاد يصدق أن أحداثاً كبيرة شنعاء حراماً مثل هتك العرض أو الحمل سفاحا ممكن أن تحدث فعلا ) .

في المجتمعات الفقيرة التي تعاني من قسوة واقعها المرير ، ولا تملك شيئاً لتقف به أمام أنياب وأطافر ذلك الواقع ن يكون تقديرها للقيم تقديراً عظيمًا فهي - القيم - الحصن الذي يعتصم به الأفراد من أن تنتهك آدميتهم . فلا مال ولا سلطان ولا نفوذ ، والحامي الوحيد هي القيمة . والارتفاع بها وإعطائها نوعاً من السلطان والنفوذ يحمي الآخرين منك ، ويحميك من الآخرين ، ولا يقلب هذا المجتمع رأساً على عقب من أن يُرى جدران القيم مصدوعاً ذات صباح ، وتبدأ سهام الشك الحادة وطلقات الاتهام المدوية ن نصيب كل إنسان ، وكل فرد يريد أن يحترق الآخرين ، ليصل إلى أعماق أدمغتهم وصمم أنسجهم ليبرى ويقيم شكه

واتهامه على أساس . وكان الغرابوة مستهدفين للاتهام والشك ولم يكن هناك أفضل من هذا ( الاستهداف ) ليعري القاص واقع الغرابوة بكل عمق وجراءة تعرية لا تدع خافية إلا وعرضتها للظهور المبين .

ورفض تصديق هذه الجريمة يخفي وراءه رصيذاً هائلاً من القيم التي تحكم المجتمع . ليس فقط تمنع حدوث الحرام ، بل تمنع الذهن أن يفكر في احتمالية وقوعه . حتى ولو وقع فموقف المجتمع منها يمنع أن تظهر إلى الوجود الاجتماعي وتعلن على الملأ . فالمجتمع فيإنكاره هذا يدفع الفاعل إلى الاستتار بأي سبيل من السبل .

أما ما حدث ذلك الصاح تحت شجرة الجمبر فهو يركز على أمرين :

الأول : وجود الحرام .

الثاني : هذا الوحد معلن عنه ويتحدى إنكار الجميع .

فالمقولة التي تقول : ( إذا ألسنر فأسنروا ) تغلف موقف المجتمع من مثل تلك الأمور . فهو ينكر وجودها ، أما إذا حدثت ووقعت فيجب ان نخفي ولا يعلن عنها لأن هذا الإعلان يחדش سلطة ونفوذ قيم المجتمع . فلتحدث ، ولكن لا الفرد ولا المجتمع يعترف بها ؛ لأن الاعتراف مرحلة تالية عن الإعلان . مثل الرشوة في قصة ( العيب ) فالرشوة موجودة ولكن جماعة المكتب نراطئوا على إخفائها عن العين ، لأن المجتمع وقيمته ينكرونها ، هذا الإنكار أثر على الفرد وجعله يمارسها في نفس الوقت الذي يعتقد بحرمانيتها ، ولكن من قال أن ما يرتكبه رشوة ؟ ليس رشوة - في رأيهم - فالرشوة هي التي يضطربها القانون . ويطلق عليها هذا

الاسم . أما ما يمارسه ( الجندي ) والآخرين . فليس يرشوة لأن القانون لم يضغطهم متلسين .

فهاك مسويان للقيم :

المسوى الأول : أن يقر المجتمع قيمة . ويمنع أن تنتهك وبالتالي الإعلام عن الانتهاك ممنوع . وإن حدث فهو يقابل بالاستهجان .

المسوى الثاني : أن يقر المجتمع قيمة الأستطيع أن يحميها من أن تنتهك . ولكن غاية ما يستطيعه منع المجاهرة بالانتهاك .

والضابط للمستوى الأول هو القابون .

أما الضابط للمستوى الثاني فهو العرف .

ولكن قد تنتهك قيمة في المستوى الأول ويعلم عنها أيضا . ( ١٤ ) ( الحرام إذن موجود لدى الناس أحيانا لا يستطيعون إخفائه ولكنه أحيانا يهزمهم وينتصر على رغبتهم في إخفائه يلثمهم متلورا في لقيط مسجى أو في بطن منفوخ . الحرام الذي كنت تسمع عنه يا تكري أفندي ولا تصدقه موجود وأمامك الفرصة لترى فاعلته كما رأيتة ) .

والرواية من ناحية حوادثها ندور حول ثلاثة محاور:

المحور الأول : موقف أهل التفتيش من الحرام ، وإنكارهم له ، ثم بحثهم عن الفاعلة ومحاولتهم إلقاء التهمة على الغرابوة لينفخوا عن أنفسهم التهمة .

المحور الثاني : إلقاء الضوء على حياة (عزيزة ) وواقعها المرير . من زوج مريض مقعد وأولاده والحمل سفاحا من محمد بن قمرين وسفرها مع عمال الترحيلة ثم وضعها للجنين وقتله ومعرفة أهل التفتيش بحكاية ( عزيزة ) .

المحور الثالث : موقف أهل التفتيش من الغرابوة بصفة عامة ومن عزيزة بصفة خاصة ، وما طرأ من تغيير . من إزالة العداة ، وحل محل الرثاء والإشفاق الذي جر إلى التقارب بينهما ، وزالت تلك الصورة المقرزة والمزينة للغرابوة وبدأ أهل التفتيش ينظرون إليهم نظرتهم إلى أنفسهم ، وأنهم آدميون من لحم ودم ، فما هي إلا الظروف والواقع المر الذي دفعهم إلى المجئ إلى التفتيش سعيا على الخبز الجاف والنزر اليسير من الرزق .

## المحور الأول :

موقف أهل التفتيش من الواقعة غريب كل الغرابة . فهم لا ينظرون إلى الحرام نظرة خارجية منعزلة عنهم . ولكن ينظرون إلى دائرة الحرام وهم داخلها وكأن الواقعة وقعت داخل بيوتهم . ومرتكبة الجرم هي الزوجة أو الأخت أو الابنة وهم إذ ينكرونه لا ينكرونه على الفاعل المجهول ، ولكن ينكرونه أن يصدر من بيوتهم فقد نصرت (عبد المطلب) أن العالة زوجته مع اسحالة وقرع هذا . ( ١٧ ) .

( غير أن عبد المطلب لم يجر . بل وجد نفسه بعد ثوان يقهقه قهقهة عالية أعلى من أية قهقهة أخرى أطلقها في حياته ، إذ كان يضحك على نفسه فقد أدرك بطريقة ما أن ما أمامه ليس عفريتاً أو شيطاناً من هذا القبيل ولكنه رضيع ابن حرام على وجه الدقة . وما كاد يتدبر هذا حتى قهقهه فقد تصور لأمر ما أيضاً أن الجنب الذي يراد الآن هو نردة الليلة الماضية التي قضاها مع زوجته وولده بعد أن غادرها ليستحم في التربة ويتطهر ثم ألقته به في الطريق ) .

ولأن الكل ينظرون إلى الواقعة تلك النظرة الدائبة . فالجميع أهمه البحث والعتور على العالة . ليس لمعاقبتنا أو لشيء من هذا القبيل . وإسأل ندرئة أهل بيته فعدم العتور على العالة يجعل كل فتاة وكل امرأة هدفاً للاتهام . وبدأ البحث المسعور عن العالة . وألقى أهل التفتيش التهمة على الغرابوة . وتزعمهم في هذا ( فكري أفندي ) المأمور ، فالواقعة عريسة . إذن العالة عريسة أيضاً . وليس من غريب إلا الغرابوة . ( ١٧ ) ( وأسار فكري أندري فحاة الخيرات التي كانت معه أسار إلى العباء الكائن خلف الاصطبلات . وقال :

- لازم واحدة من دول .

وتطلعت العيون والقلوب إلى حيث يشير وجاء الجواب من أكثر الواقفين، وكأنه  
فرحة البراءة :

- هم ما فيش غيرهم وبدي عايزة كلام ، ودول غرابوة ولاد كلب ) .

واستراح أهل التفتيش لاتهام الغرابوة ، وان كانت فكرة اتهام الغرابوة  
لم تنل من اهتمام ( فكري أفندي ) الكثير ، فهو لا ينظر إليهم نظرة آدمية بالمرة  
فهم - في نظره - كائنات غريبة لا تمت بصلة للآدميين ، فهم لا يستطيعون أن يخطئوا  
كما يخطأ الأعمى . ( ١٣٥ ) ، ( تعود فكري أفندي أن يراهم هكذا وهو صحيح  
قد افترض أن الفاعلة منهم . قال هذا للناس وذهب بنفسه وبحث خلف الإصطبل  
ولكنه كان يفعل هذا وكأنه يفعله من وراء عقله . فالواقع أنه بينه وبين نفسه  
لم يكن ليستطيع أن يتصور أن بين هذا القطيع البشري امرأة جديرة بصفة الأنثى .  
كان متأكدًا أن الفاعلة منهم ومع هذا لم يكن ليصدق أن من الممكن أن توجد  
بين هذه المجموعة امرأة أو بنت تحمل وتلد حلالا كان أم لقيطا ، لم يكن ليصدق  
وكان التي ولدت اللقيط لم تكن امرأة بل كانت رجلا ولم يسترح عقل فكري أفندي  
أبدا لهذا التصور فقد كان من العسير عليه أن يغير نظرتة إلى الترحيلة في لحظة  
وكان من الصعب أن يستحيل النفر منهم في خاطره إلى امرأة أو إلى بنت تنام مع  
الرجال وتحمل وتنجب أطفالا ، ولكن فكري أفندي كان من الصنف الذي لم يتعود  
قلقلة الحقائق في رأسه كثيرا قبل أن يصدقها).

ولم يسفر البحث عن شيء . فقد خرجت نساء وبنات الغرابوة بريئات من هذا الفحص والكشف . وإن كان الأمر قد انتهى من الغرابوة . فقد ارتد ثانيا مع أهل التفتيش . ومع شكهم في أنفسهم زاد إصرارهم على معرفة الفاعلة . ( ٥٤ ) :  
 ( أما أهل التفتيش وأناسه وقاطنوه . فالمسألة عندهم لم تمر هكذا بسهولة . وكأنك القيت بحجر ضخم في ماء راكد آسن بدأت الاتهامات والشكوك تنهال من كل صوب . حتى لم تسلم واحدة من نساء العزبة الكبيرة من الشك مع عليهم التام أنهم جميعا بريئات ولكن لا بد لكل خطيئة من خاطئة ولكل جريمة من فاعلة والجريمة قد عرفت ن ترى ومن تكون الفاعلة ؟؟ ) .

لم يسلم أحد من النك ، حتى ( مسيحة ) أفندي الباش كاتب رداً بشك في اسنه ( لدا ) التي نرى تماثلا فنيات ونساء العزبة . ( ٥٥ ) : ( بل أكثر من هذا بدأ الشك يزحف من بيوت الفلاحين المنخفضة إلى بيوت الفلاحين العالية . فبدأ العار يلعب في عب مسيحة أفندي الباش كاتب . وبدأ يخاف أن يكون المحطور قد وقع والحقيقة أنه كان خائفا دائما أن يقع المحطور ن بل أكثر من هذا هو دائم الخوف من المحطور وغير المحطور ) .

فهو يعرف بتلك العلاقة التي تربط ابنته بصفوت ابن المأمور . ويعرف بحكاية الخطابات التي يحملها ( محبوب ) النوسطحي من والى لندا وصفوت ولا شيء في هذا . لأن هذا يتم على مسععه وعلمه وطالما يحدث هذا في العلن فلا خوف . الخوف أن يكون حدث شيء في الظلام . وفي الظلام لا يتورع الإنسان أن يرتكب أكبر الكبائر . أما في العلن فهو على رقائه من المجمع . ( ٦٥ ) .

( الشك لم يكن مسيحة أفندي قد أحسه أبدا إلا تجاه الآخرين تجاه  
الفلاحين والمأمير والإدارة وكل الناس ، لم يكن أبدا قد أحسه تجاه نفسه أو من  
في حكم نفسه تجاه عائلته ...تجاه ابنته لنده بالذات . حياتها علنية أمامه وأمام  
أمها وأمام الناس وحتى إشاعة رسائل العيون والنظرات والإشارات بينها وبين  
صفوت تكاد تكون علنية هي الأخرى . وحياتها العلنية هذه هي كل حياتها  
فهل من الممكن أن تكون لها حياة أخرى ، حياة تزاولها مع صفوت ابن المأمور  
في الظلام ) .

وفيما عدى مسيحة أفندي بقف أهل النفيس عاجزين عن معرفة العاعلة ، وهذا  
الموقف يجعل كل امرأة هدفا ، ( ٩٠ ) : ( وطالما هي مجهولة فأي اتهام صحيح ، وأي  
إشاعة قد تكون هي الحقيقة والإشاعات كثيرة والألسنة في التفتيش لا تهدأ وواضح  
أن الأمر سيظل هكذا إلى أن تنجلي الحقيقة ) .

## المحور الثاني :

وتحلت الحفيظة عن ( عزيزة ) وعرف فكري أفندي بأمرها أثناء مروره على الأرض وكان الرئيس ( عرفة ) قد أراحها من العمل رافة بها مع احتساب يوميتها ، وعهد بامرأة

أن تجلس معها تحت ظليلة بين أعواد النيل المزروعة حول تربية القطن وحينما غضب المأمور من تصرف الرئيس ( عرفة ) سر تصرفه بأن ( ١٠٠ ) : ( عزيزة أم اللقيط المقتول ، وإنهم حين عرفوا هذا تستروا عليها فهي ولية ولنا ولاية وحين أصابتها الحمى رأوا أن يرقدوها في الغيط تحت ظليلة لكي يستمر أجزها ساريا ، فهي غلبانة آخر غلب وتنفق على زوجها المريض وأولادها الثلاثة منه ) .

وحينما رأى المأمور عزيزة والمرص ينهش في جسدها والحمى تطوق جسدها الناحل رثى لها وتغاضى عن احتساب يوميتها وهي نائمة . موقف غريب حقا يفعه فكري أفندي ومن قبله الرئيس عرفة بدلا من أن يستمطر اللعنات فوق رأس أجداد وأداء عزيزة يكونان أول المساعدين والمشفقين عليها ، وهي في محنتها ...زوج تعبد عاجز عن شئئ ، توفير الخبز لها ولأولادها ، وعن القيام بواحه الروحي ، ذلك هو قدر عريرة ، فهل تستطيع مواجهة قدرها ؟

القاص لم يترك لها حرية الاختيار بين أن تواحه قدرها أو تنكص ، وأنى عند المنطقة التي تستطيع أن ترى بوضوح حقيقة عزيزة وبتراها بترا ، فلم يضع عريرة بين طريقين ولم يترك لها حرية الاختيار . بل وضعها على شفا جرف حيا في يوم عاصف مستمر . فكان لا يبد من السقوط في الهاوية ، وترك سقوطها علامات

استفهام بدون إجابة . فمنذ البداية قد اتضح الطريق أمامها نحو الهاوية السحيقة فحينما ذهبت إلى أرض محمد بن قمرين للبحث عن جذور البطاطا تلبية لرغبة زوجها عبد الله أخذ منها محمد الفأس ، هنا بدأت خطوات المأساة ترتسم في وعي عزيزة ، فقد اشتهدت - وهي الأنتى - الذكر . وبذلك أكملت خيط السقطة في حبال عريّة . ( ١١١ ) ، ( وخلص جلبابه وأخذ الفأس منها وتلفت حوله ثم انتقى مكانا ما لبث أن راح ينهال بالفأس عليه وعزيزة قد جلست غير بعيد ترقبه وتقارن بين حفرها وحفره ، والفأس في يدها هي أقوى منها وأثقل والفأس في يده هو القابض عليها هو المتحكم فيها هو الرجل ، هو الرجل الذي يذكرها بعد الله حين كان يعمل ، وتصنع له تلك العضلات الأخرى في بطن نراعه ويلهث ليس لهث المتعب ولكنه لهث الرجل حين يعمل ، لهث منتظم قوي وقور ) .

لقد تفتحت مسام كبان الأنتى فيها . العطش للرجل في صورة ( محمد بن قمرين ) وهو يبحث لها عن جذور البطاطا حتى أن ما حدث بعد ذلك يعد غريبا وغير مسامر لمنطق الأحداث ولكن الأمر مع عزيزة وما كانت تشعر به وتفكر فيه منطقي للغاية . وإن عدم حدوث ما حدث في تلك اللحظة لا يمنع حدوثه في لحظة أخرى ، وعلام حدثه من ( محمد بن قمرين ) لا يسعد حدثه من عريّة ، ( ١١٢ ) : ( والواقع أنها لم تتبين تماما ما حدث بعد هذا . الأمور حدثت بطريقة أسرع من ان تدركها أو تتلافها . ما كادت تحاول أن تقوم حتى كان محمد إلى جوارها في الحفرة يساعدها . مرة واحدة وجدت نفسها في حضنه وقد أطبق عليها بذراعيه ليرفعها وهي وإن كانت قد ارتعشت حين أحست بنفسها في حضن رجل غريب إلا أن الرجل الغريب لم يكن سوى محمد الكشر الذي لا يتسرب إليه الشك .

ولكن الشك بدأ يتسرب إليها حين لم يرفعها ولم يدعها ترفع نفسها . وما كاد الشك يتسرب إليها حتى كان قد أصبح حقيقة – روعت أولا ولكنها استجمعت نفسها ودفعته وناضلت ولكنها كانت ترى أن نضالها لا فائدة منه ، بل ليست تدري على وجه الدقة سر هذا الانهيار الذي أصابها حين أصبحت في حضنه تريد أن تقاوم ولكنها لا تستطيع ، تستميت ولكنها يائسة تصرح فيجتمع الناس وتصبح فضيحة ومضغة في الأفواه ؟

تسكت تعضه ؟ حتى ملابسها التي لا تحتكم على غيرها مزقتها . كل ما حدث أنها طلقت ثنن مذهولة مرعوبة حتى قام وشتمته ولكن ماذا تفيد الشتائم . ولم يقل هو حرفا ، فقط ظل ينظر هنا وهناك ، الغبط خال تماما ، والبهايم والناس تروح من بعيد وعاد إليها ، وهذه المرة كان يمكن أن تقوم وتحري وتضربه بالعأس ، إن اضطرت . ولكنها لم تفعل – سكتت وطلبت ثنن أنيس المظلوم الذي لا يخلي نفسه من مسئولية ظلمه ) .

وكانها كانت جوعي ، ورأت طعاما ليس بطعاميا ، فلم تحتمل الأم الجوع والأم الحرمان ، فمدت يدها بكل حرية واختيار لتأخذه ، ولكن لم يكن بديل عن ذلك عندما جعلت لغرائزها هي الحكم والمتصرف فهي لحظات مرت بها لم يرفعها سوى الاستسلام والخضوع ، ولكنه الاستسلام الإرادي والخضوع المتمتع بالنسبة لها وهناك الجزاء الوفاق ، فإن لم نستطع خمل قدرها فلنأخذ ، قدرنا أفسر . وأمر وأسق ( ١١٤ ) : ( أقطع ما في الأمر كان عند الله . عند الله لم يقربها من عمر انتها زبيدة ، والناس تعلم هذا ، فماذا يقول وماذا يقول الناس ؟ هو لن يقتلها فهو عاجز عن

قتلها ، والناس لن يقتلوهها ، فهم لن يستطيعوا قتلها ، ولكن القتل عندها أهون من أن يعرف عبد الله ويعرف الناس ) .

خطأ مصدره قسوة الواقع على الإنسان ، وعدم قدرته على تحمل هذا الواقع فهي لحظة يحاول الإنسان فيها أن يوافق بين ضعفه وقسوة الواقع . هذا التوافق القائم على التعارض هو الخطأ ، فلا توافق بين الواقع وضعف الإنسان ، فهذان قطبان متعارضان الخط الواصل بينهما هو الألم ، ولا توافق بين القطبان ، وإن حدث فهو الخطأ - كما قلنا - خطأ مصدره جهل الإنسان البسيط بحقيقته وضاءته ، جهله بقسوة الواقع الذي يعيشه ، هذا الجهل يدفعه إلى أن يرسم خط أمل في أن يتصالح والواقع ، ولم يدرك أن في اللحظة التي يفعل فيها ذلك ، يكون قد وقع في شرك الخطأ ، وهذا لن يخفف من قسوة الواقع بل يزيده .

وفي لحظة التنوير التي مرت بها عزيزة ن أدركت سبب سقطتها بكل وضوح وجلاء . وذلك حينما عجزت في التخلص من الجنين ، وكانت على وشك أن تفضع بين عمال الترحيلة ، وهي بعيدة عن روحها وأولادها وولدها ، ( ١١٨ ) : ( وكل هذا من أجل جدر بطاطا ، لا ، كل هذا لأنها لم تقاوم لحظة تلك اللحظة ، التي صاحبته سبعة أشهر تطاردها كاللعنة المقيمة لماذا تركته يفعل بها ما فعل . تقول لنفسها أنها لم ترص ، ولكنها ترد وتقول : ولكني لم ارفض فليلعني الله في كل كتاب أنزل لأني لم أرفض . تضرب رأسيا في الحائط وتقول ، كنت عارفة أنه حرام وعيب ولم تقاوميه كما يجب . لم تصرخي وقلت الفضيحة وما قد أتت الفضيحة الكبرى انفضحي إذن يا عزيزة واشبعي فضيحة فلولا أنك ضعفت لحظة لما حدث ما حدث . لحظة ضعف واحدة منها ، هي التي قاومت طبيعتها حين رقد عبد الله

رقدته التي لم يقم منها ، قاومت اللبالي التي كانت تريده فيها ولا تستطيع ، أ يكون هذا هو السبب في أنها ضعفت تلك اللحظة التي أخذها فيها محمد بن قمرين ) .

### الصراع المعكوس :

فإذا كان الصراع عادة يكون بين اختبارين ، ويكون الخف من نتيجة الاختيار ، فلم يكن هنا أي خيار ، وبالتالي لم يكن شمة خوف ، فالصراع المعكوس هنا ألغى حرية الاختيار ، وألغى كذلك الخوف الذي يظهر طبيعة الشخصية فالصراع ما قائم على مقولة ( لم حدث ما حدث ؟ ) وبدل من حرية الاختيار كان التسليم لما حدث ، وبدلاً من الخوف من النتيجة ، كان شمة الندم على ما حدث فالضحية هنا - عزيزة- لا تملك تغيير شيء ، فلم يستيقظ وعيها على وجودها إلا وقد شكل على تلك الصورة ، التي تدفعها إلى تدمير وتحطيم هذا الوجود ، ( فهي لم ترض ، وكذلك لم ترفض ) فلنكن الإرادة بيدها من أجل التخلص من هذا الوجود فسعت سعياً إلى إغراق نفسها في ماء الخليج .

والإدراك هنا أو لحظة التنوير التي مرت بها الشخصية ، أتت كالفيض الفجائي بدون إرهابات ، فإذا كانت الشخصية مسطحة تتقبل تأثيرات الواقع الخارجي بدون أي مقاومة فلا معرفتها بأن ما فعلته حرام دفعتها للمقاومة وحوفها لم يدفعها للمقاومة ، وحاجتها كأنثى لم تقاومها ، ونتيجة لهذا الوجود السلبي الخاضع المستسلم أثمر شمة الحرام ، فلحظة الوعي بكل هذا كانت كرد فعل تبدأ السعي نحو التخلص من هذا الوجود عقاباً له عن تلك الثمرة أو النتبحة المعرضة للقيم وللشعر ، أو لأنه أثبت عدم صالحته للدقاء ، وليس هذا الحكم صادراً

من الخارج ، بل هو حكم داخلي صادر من أعماق الوجود ، وتلك لحظة يصل فيها الوعي إلى قمته . أن يستصدر الوجود أو الإنسان من داخله حكماً بالإعدام على وجوده . ويسعى إلى تنفيذ هذا الحكم ، وهذا يفسر سعي عزيزة المتكرر إلى إلقاء نفسها في الخليج ، ( ١٥٩ ) ، ( وأسلم التشنج عزيزة إلى نوبات هلع مفاجئ إذ بدأت تقوم بغتة من نومتها صارخة وتطلق جارية إلى الخليج القريب وتقف بنفسها فيه بملابسها وكأنها تريد غطفاء نار مشتعلة فيها ) .

سعي دؤب إلى تدمير الذات ن حينما لا يجد الموجود إلا ذاته الأثمة فيستدير إليها بكل قوة وعنف ، انتقاماً من الذات المذنبه ، وفي نفس الوقت تكفيراً عن الأثر . ( ١٦٣ ) ، ( إذا أفاق من غيبوبتها لا تكاد تفتح عينيها وتقول لها أم الحسن : أزيك يا حتي دلوقتي حتى تدب على صدرها بكلتا يديها وتقول : يا لهوي . ثم تأخذ في لحم خدودها وتمزيق ثيابها ولحمها بأظفارها رغم كل مجهودات جارتها ومن يتصادف مروره أو وجوده في محاولة شل حركتها وتكتيف يديها فلا تزيدا محاولات إيقافها إلا ثورة وهياجاً ولا تكف عن تمزيق نفسها إلا حين تهوي مرة أخرى في سراديب الغيبوية ) .

وجود تدنس وفسد ، ولا طريق إلا لإعدامه ، وأي محاولة لمنع من تنفيذ هذا الحكم هو تعضيد لهذا الفساد . وفي نفس الوقت يقابل بمقاومة شديدة من قتل الوجود ، وإذا كانت عزيزة تشعر بعملها بأنه ورم خبيث يؤرقها ليلاً ونهاراً فقد سعت منذ البداية إلى التخلص من ذلك الورم الخبيث وعجزت وانتصر عليها

واستمد ذلك الورم الخبيث كيانه من جسدها ، وحينما أصبح في متناول يدها قتلته لأنه ينزل لها شينين :

أولاً : انه حرام في حد ذاته ، وهذا بعد عقاندي .

ثانياً : سب لها فضيحة بين عمال الترحيلة ، وهذا بعد اجتماعي .

وقد استراحت بعد أن تخلصت من هذا الوجود المادي المتمثل في الجنين وهي المرحلة التي نعقب النخلص من شيء شاق لاستئصال شيء أشق وأمر ( ١٢٢ ) : ( واستيقظت مع الأنفاس في الفجر ، ومع شعاعات الشمس الأولى بدا لها أن الهم قد انزاح عن كاهلها إلى الأبد ، وأنها أصبحت طليقة حرة تخلصت دون أن يشمت فيها أحد أو يعيرها أحد من الورم الخبيث الذي كان يوردها حتفها زبدا لها الصاح جميلاً جداً ، وبدا لها أن كل شيء سوف يسير كما أرادت تماماً وكان الله معها ) .

استراحت بعد الولادة ، تخلصت مما كان يعيش داخلها ويسمم وجودها ولعلقت أحشاؤها محتويات الورم ، تلك العملية أحدث أبعادا وتأثيرات أعمق وأشمل لدى عزيزة ، فهي وإن تخلصت منه وقتلته إلا أنها حملت حملاً آخر هو امتلاء كبانها بالدنب ، حمل آخر ، من نوع آخر ، وأصحت حلى بالندم والحسرة والمرارة والعار ، وقد شعرت أنها بحاجة إلى ولادة من نوع آخر ، لتتخلص من هذا الحمل المختلف ، في المرة الأولى تخلصت من الجنين ، وهو الوجود الفعلي الذي استمد وجوده من الوجود الرئيسي ، أما في تلك المرة تريد أن تتخلص من الدنب ، لعلها تشعر بالراحة التي شعرت بها بعد عملية الولادة الأولى .

فذهبت إلى مكان الولادة الأولى على حافة الخليج . وتحت شجرة الجميز  
ومسكت بفرع الصفصاف وتقمصت كل حركات ومشاعر الولادة الأولى ، وإذا  
كانت عملية الولادة الأولى تمت في الخفاء وفي الظلام وبعيدا عن أعين الناس لأن  
الحرام كان يتنفس ويتحرك ، فإن الولادة الثانية تمت في عز الطهر ، وعلى الملا؛  
لأن تلك الولادة الرمزية نوع من التطهر والتكفير . وكل هذا يدفع الإنسان على  
التسامي والعلو ، ولا بد أن يتم هذا في وضع النهار ، لأنه إعادة للوضع السليم  
للشخصية بعد أن أخذت وضعاً شاذاً وخطأً وحراماً . ( ١٦٥ ) :

( وفي الظهر . في عز الظهر تلك الفترة التي تقف فيها الحياة تماماً ويثوب  
الناس إلى غداء يسلمهم إلى غفوة لا يستيقظون منها إلا في طراوة العصر . في الظهر  
فتحت عزيزة عينها فجأة وكأنها لم تكن نائمة وانفجرت شفتاها وطلبت من ابن  
الريس عرفة الصغير أن يذهب ويملا لها الكوز الفارغ في تلك اللحظة فوجئت أم  
الحسن بعزيزة تعتدل وتقفز جالسة ثم تطلق صرخة عالية مدوية ما لبثت أن  
أعقبتها صرخات هائلات مدويات وقبل أن تستطع أم الحسن أن تدرك أو تعي  
ما يحدث وقفت عزيزة وهدمت الطليلة وما لبثت أن انطلقت تجري ناحية الخليج  
وتصرخ وبلا وعي تبعتها أم الحسن وهي تجري هي الأخرى وتصرخ وتستغيب  
بالناس مخافة أن تكون عزيزة قد انتوت أن تلقي بنفسها في الخليج . كما كانت  
تفعل . وعلى صرخاتها جاء الناس من كل مكان . من العزبة من الجرن . من فوق  
ماكينه الدراس . جاءوا هالعين يرون ما هنالك . وقالت لهم أم الحسن :

ألقوها ح ترمي روحها في الخليج . وجرى الناس يحاولون منعها ولكنها  
انهالت عليهم عضا ورفسا ونشب أظفارها بطريقة مجنونة متوحشة لم يملكوا معها

إلا التراجع . ولكنها لم تلق بنفسها في الخليج انطلقت تجري حتى وصلت إلى نفس المكان الذي وجدوا فيه اللقيط والذي كانت لا تزال فيه آثار الدماء السوداء الجافة ) .

وبين دهشة المتفنين حولها وذهولهم جلست عزيزة القرفصاء على حافة الخليج وكأنها تنهياً للولادة وانطلقت من فمها صرخات متواليات وكأن الطلق اشتد عليها ثم بحثت بيدها حتى عثرت على عود الصفصاف الذي احترق نصفه والذي كان لا يزال في مكانه من الحافة وأطبقت عليه بأسنانها واتخذت هيأتها طابعا جنونيا مدعورا وهي تضغط على العود وتنشب أسنانها فيه . وطلبت تضغط بتوحش وتضغط وهي تدمدم بأنين محتس كاسر والدم يسيل من فمها وأسنانها هيليس العود وعيناها حمرتان متوهجتان وشعرها منكوش ن ويدها بعصران طيس الخليج فتحيلانه إلى تراب حاف وفحأة . وكأن شيئا طوق داخلها . تهاوت ممدودة على حافة الخليج ) .

وبدك تخلصت عزيزة من وجودها . غراديا بعد أن اكتمل وعيها باستحالة الانسجام بينها وبين الوجود .

### التعظيم الشخصي :

الحدث الرئيسي في الرواية ( الحرام ) ونظرة أهل التفتيش إليه ، و ( عزيزة ) مصدر ذلك الحدث والفعل ، إلا أننا لم نر عزيزة وأخذت الشخصية صاحبة الحدث الرئيسي وما ألقى على حياتها قليلاً جداً من مساحة الرواية . ولا ينحصر ما يتطلع إليه القارئ لمعرفة الشخصية ، ومع التعظيم الذي تعمد القاص وفرضه على

الشخصية ووضعها في منطقة الظل ، إلا أنه استطاع أن يخلق التعاطف الحاد بينها وبين من حولها حتى بينها وبين القارئ . هذا التعاطف لم ينشأ إلا من خلال عملية التسامي والتكفير والتطهير التي بدأت ( عزيزة ) تدخل في خضمها بعدما ألمت بها حمى النفاس ، ومع ذلك يبقى الظلم الواقع على ( عزيزة ) ليس من الواقع فحسب ولكن أيضا من القاص ، وكأنه كان يشعر هو الآخر بالحرج والمضيق أن يتحدث عن صاحبة تلك الجريمة .

أو أن الحدث الذي قامت به عزيزة يعدل أحداث كل شخصيات الرواية ربما ، ولا نريد أن نجزم بشيء ، لأن النص الأدبي – كما يقولون – حمال أوجه ولا نريد أن نقف بالنص القصصي على رأي واحد .

## المحور الثالث :

كان سعي أهل التفتيش لمعرفة العاعلة يعتمد على حاجة كل منهم إلى تبرئة نفسه . ولم تكن فرحة أهل النفس معرفتهم العاعل إلا كفرحة المنهر حسما يسمع إعلان تبرئته . ( ١٢٧ ) فلم يكن فيه حلا للغز الذي حيرهم فقط ، ولكن الحل أيضا على وجه مرض ، الحل كما أرادوه تماما وخافوا ألا يكون . حل بردت به صدورهم وهجعت به حواطرهم وأعاد لهم الثقة في أنفسهم وأخلاقهم ونسائهم وقيمهم تلك الثقة التي طللت حائرة مزعزعة تحوم حولها الشكوك وتتطاول عليها الألسن منذ اللحظة التي عثر فيها عبد المطلب على اللقيط ) .

وإذا كان الرحلة لا يُقالون بأدب اثنام من ناحية أهل النفس ولا يعيروهم أدب أكثرات ، فبعد الحادثة أصبح كل اثنام أهل النفس نصا على الرحلة . ( ١٢٨ ) ، ذلك هو ما حدث فما كاد أهل العزبة يطمنون على سلامة أنفسهم بدأوا يستديرون للغرابوة الذين كانوا يتحاملون وجودهم إلى تلك اللحظة ويعيشون على أرض التفتيش يكاد لا يحس بهم إنسان ، بدأوا كلما داع حبر عزيزة ولقيطها وحكايتها يصحون محط أنظار الناس ومحل اهتمامهم ولكن أي اهتمام ؟ ) .

كان اهتمام متوبا بالاشمئزاز والقرف ، فهم وإن اهتموا بهم إلا أنه اهتمام بشيء تافه حقير لا قيمة له والاهتمام هنا يزيد ويضاعف من حقارة وتفاحة الشيء فهم - أهل التفتيش - نظروا إلى الرحيلة وهم موصومون بالعار ، لم يخرج عذبة من صوفهم ؟ ( ١٢٨ ) . ( الفلاحون الكبار والمزارعون لم يفعل الخبر أكثر من أن هيج كامن تقرزهم من الغرابوة واشمئزارهم منهم ، فأصبح الحديث عنهم يسفه

أو يتنعه سبل من الشتائم والبصقات كأن الترحيلة في نظرهم حثالة آدمية تهبط على تفتيشهم مرة أو مرتين في العام كالوباء الذي لا مفر منه فما بلك حين يكتشفون أن تلك الحثالة قد صدر عنها شيء حرام كهذا الذي حدث منذ أيام وأنها حاولت إخفاءه وإصاقه بأهل بأهل العزبة . الترحيلة أنفسهم كانوا يكادون يصبحون شيئاً حراماً . وكأن الناس جميعاً مخلوقات حلال وهم وحدهم مخلوقات حرام ، أي بشاعة يصبح عليها الحرام إذا ارتكب حراماً ؟ نساء الفلاحين هن الأخريات كان لهن مثل آراء أزواجهن وآبائهن بل أعرب من هذا كن أكثر حماساً وأكثر تحاملاً وكأنهن يستكثرون على الترحيلة أن تحمل إحداهن مثلما يحملن وأن تلد مثلما يلدن ولو كان حملها وولادتها حرام في حرام ) .

وأعلى القاص لهذا الحدث أكثر من بعد من خلال استعراض وجهات نظر أكثر من شخصية منفردة . وفي النهاية رؤية الجماعة لذلك الحدث ن فنظرة فكري أفندي لعزيزة ملؤها الإشفاق والرثاء للضعف والمهانة الإنسانية المتمثلة في عزيزة فقد تخيل أن عزيزة زوجته وأنه عبد الله زوجها المريض . ( وفي إغفاءته رأى فكري أفندي نفسه نائماً مع عزيزة تحت الظليلة والأنفار كلهم يتفرجون عليه وعليها وكان زوجها بطلنه المنتفخ واقفاً ممسكاً خطاً مع الأنفار وكان هو الآخر يتفرج ولا يفعل شيئاً أكثر من أن يتل ، حرام عليك يا حضرة المأمور حرام عليك دي عيانة ... وأفاق فكري أفندي مختنقاً وكأنه يعاني كابوس ) .

ويستخدم القاص هنا وجهة النظر ليرصد بكل دقة هذا التحول الذي سيحتاج أهل التفتيش من الكره والاشمئزاز إلى التعاطف ، ومن البعد إلى التقارب الذي يحدث بين الاثنين . ولم يكن القاص ليستطيع رصد هذا التغير في سلوك

الجماعة إلا بقننيه وجهة النظر تلك " إن إحدى خصائص هذه الرواية وغيرها من أعمال يوسف إدريس أنها ترى الحدث ورد الفعل لا من وجهة نظر فردية فحسب بل من وجهة نظر جماعية أيضا ، فخصمة المرأة المائسة المعذبة عزيزة بل حياة الرحيلة كليا . لا ترى من وجهة نظر فكري أفندي أو غيره من أهل النعش فحسب ، بل ترى القرية كلها بأطفالها نرجالها ونسائها وهم ينحولون أمام عيوبها من احتقار وكره وغضب تجاه الرحيلة إلى التبرير والحب والنعاطف " (١)

وبدأ موقفهم من عزيزة يتغير تغيرا كاملا فبعد أن كانوا ينظرون إليها نظرتهم إلى شيء يدور في فلك الحرام . متخم بكل معاني العار والحر . بدأوا يشفقون ويرثون لها ن بل امتدت أيديهم إلى عزيزة لمساعدتها . وانتقل موقفهم من عزيزة إلى الغرابة . ولكن هذا التغيير لم يحدث إلا عندما رأوا عزيزة في حضم سكرات المرص . وكان لحظات الضعف الإنساني تخمج بين الإنسان والإنسان (١١٥٨) .

(غير أن عزيزة حين بدأت تخرف وتصرح صرخاتها المحمومة ويخف إليها بلدياتها يحادثونها ويصبرونها ويهددون عليها وكأنها واعية عاقلة مدركة لما تقول . حين بدأت تفعل هذا ن بدأ الجمود يدوب . وبدأت ألسنة المتفرجين من أهل العزبة تنطلق وتتحدث مع الغرابة وتشارك بكلمة عطف أو بممصصة شفة ثم تجر الكلمة كلمات ويبدأ حديث بين الرجال والرجال . وبين النساء والنساء ولكن عزيزة بعد ثلاثة أيام من رقادها بدأت تتشنج يتخشب جسدها حتى يصعب جافا مشدودا كالعصا وتعض لسانها حتى تدميه وكان أهل العزبة حينئذ

١- (وجهة النظر في الرواية المصرية) د . إنجيل بطرس سمعان - مجلة فصول - المجلد الثاني - العدد الثاني لسنة ١٩٨٢ - صفحة (١١٤) .

لا يستطيعون أن يتمالكوا أنفسهم أمام منظرها فيسرعون مثلهم في هذا مثل بلدياتها الترحيلة ويتعاونون في فتح فمها وتديلج جسدها وتنشيقها بماء البصل ) .

### الشخصية المصرية والبعد الثالث :

ونج القاص هنا أن يرصد ويلتقط ملمحا من ملامح الشخصية المصرية في أعماق الريف المصري ، وهذا ملمح حضاري احتفظت به الشخصية المصرية في أحلك لحظاتها التاريخية . وهو - الملمح - من أخص خصوصيات الشخصية وهو أن يهتم الجميع لنجدة فرد من أفرادة متناسين ما بينهم من خلافات وأحقاد متناسين كل شيء ، إلا ما يدفعهم لنجدته ، وهو ما نسميه في الريف ( بالواجب ) فحينما رأي أهل التفتيش ما تعانیه عزيزة هموا لنجدتها والتحموا بالغرابوة فالشخصية في ذلك الزمان والمكان بسيطة جدا ، ولكن تلك البساطة تخفي تحتها كما هائلا من رصيد حضاري . الذي لا تظهره إلا الأزمة أو المواقف الصعبة . هذا الرصيد الحضاري ليس محصلة تجربة فردية في زمان محدد أو مكان معلوم ، وإنما محملة أجيال طويلة ، يعيش في ضمير الأمة ، فهو إحساس فطري يدفع صاحبه بدون تفكير وبدون وعي إلى أن يفعل هذا الفعل ، هذا الدافع والوازع الفطري هو الذي دفع أفراد أهل التفتيش وجماعته أن يغيروا مواقعهم من عزيزة والغرابوة واستطلاع القاص بذلك أن يحقق البعد الثالث كما يقول الدكتور ركي نجيب محرد " إن القاص في رحمة لأسخاصه إذا ما كشف خلال سلوك الأشخاص عن المفاتيح الدفينة لكل سلوك فإما يبلغ بهذا بعدا ثالثا ، وبذلك تتكامل حلقة الفن أبعاده الثلاثة ، فكترة من

حوادث أولاً ، وإطار نفسي يضمها في شخص واحد نايا ، وأساس أولي عمق نسبي عليه كل  
توصيلات الحياة ثالثاً<sup>(١)</sup> .

وهذا هو عماد العمل الأدبي الصادق ، أن يجلي القاص من خلال كم  
الأحداث والمواقف جوهر الإنسان ، الذي يعيش في بيئته ويزيح ما ران على وجه من  
غشاوة ، يكشف أصالة وعمق ووعي والسماوات الحضارية التي تميز الشخصية  
المصرية عن بقية الشخصيات في أي مكان في العالم ، ولا تشغل القاص كثرة  
الأحداث والمواقف على أن يردّها إلى مصدرها الرئيسي ومنبعها الأساسي .

" لأن الطويلة ليست بطويلة الأحداث ، فالأحداث ما أسهل أن بأنها على أيدي القصاص  
والسعاء هذا أوداك من عامة الناس . وإما الموهبة الذرة بحق هي تلك التي نطق الأحداث بين  
يدنها الأضغوار النفسية والأعمال الحضارية التي نفترق إليها أبطال الروايسة والواقعة على  
احداث مزايتها ، لا يفت حلزومهم عن حد التحليل العسي . وإما يجمع إليه المعد الحصارى  
لسنة وبنى فريمه ولا ينكس الحاطب يتلا بين ذكر وجريكي في أظالمها وممر جمعها من سابة المنمع  
وأحلاس الأرقنة والسوانع لأنها تحس بكل له مبحه في النسرذ ولا ينعج الخاصة  
في العوس<sup>(٢)</sup> .

فعلاقة الإنسان المصري بغيره ليست علاقات جامدة ، وإها في تدب  
مستمر وتغير ، من البعد إلى القرب ، من الكره إلى الحب ، ذلك لأنها موصولة بهذا  
الجوهر الكامن في أعماقه إبراهيم ، وهذا الجوهر الإنساني يفرض سلطانه على تلك

<sup>١</sup> - نلعة الشفد - د ركي نجيب محمود - صفحة (١٠٥) .

<sup>٢</sup> - حوانب من قصايا الأمة العربية - د . حلمي على مرزوق - صفحة (٨٨) .

العلاقات ، ويملي عليها أحكامه ، وكلها أحكام شاخصة إلى تعضيد وتأکید صفة الإنسانية ، حيث كادت أن تنسى من كثرة ما مر بالإنسان من تجارب ومواقف مؤلة تنسي أول ما تنسيه تلك الصفة التي تحفظ عليه كيانه وكرامته ووجوده الإنساني ، وها قد جمع المصاب بين فئتين من الناس كان البعد والكره حجازا بينهما . فبعد موت عزيزة أسرع أهل العزبة نساؤهم ورجالهم لتعزية الترحيلة ( ١٦٨ ) : ( أما رجال الترحيلة فقد جلسوا غير بعيد في مقدمة الجرن يتقبلون عزاء رجال التفتيش وقد اختلطت العمم بالعمم والجلاليب بالجلاليب ، فلم تعد تستطيع أن تميز الفلاح من الترحيلة ولا صاحب الماتم من المعزي بينما الشيع أبو إبراهيم الفقي قد احتل دكة النوارج الواقعة على رقية قمح نصف مدروس ومضى يتلو بصوته الأجنح المنحوح بعض ما تيسر من سورة النساء ، وشعاع الشمس يحمر ويغيب خلف جبل التبن الهائل المتخلف عن دراس المكنة ) .

ويحرص المأمور بعد ذلك على أن تدفن عزيزة في بلدها ويدعو الأسطى عنده ليحمل عزيزة في اللوري ليذهب بها إلى بلدتها ، ويغادر جسمان عزيزة أرض التفتيش مشيعا بيبكاء ونهنيات النساء ونظرات وعبرات الرجال .

ولم تشغل كثرة تفاصيل الرواية القاص على أن ينتقي منها ما له دلالة ومعزى بعيدة وهو وإن كان حاضرا في كل وقت ومع كل حديث إلا أن هذا الحضور لم يفسد موضوعية الرواية ، فهو لم يقحم نفسه إقحاما ولكنه كان موحودا ليرشد الحدث القصصي من خلال وجهة نظره المتحاشية مع العمل الأدبي ككل نظف الحدث تفاصيله الرقيقة الملموسة للكشف عن المساعر والأفكار والمواقف وجمع

الأعمال التي قام بها أهل التنقيح لمساعدة عبدة المسكينة والأحرار الذي يدفع لها ويدفع لجاراتها التي تعنى بنا في أثناء مرضها والماء الذي يوفره لسربنا والطعام الذي يرسلونه إليها وذلك المشهد المفلق خوار الخليج ولحظة الوداع الحزينة كلنا أدوات وأساليب ( وجهة النظر ) التي سرع لإدريس مثير في استخدامها<sup>(١)</sup>.

---

<sup>١</sup> - وجهة نظر في الرواية المصرية - د . إحليل بخرس سمعان - صفحة ( ١١٥ )